أثر المشارقة في ازدهار المكتبات في بلاد الحجاز خلال العصر المملوكي (648 - 923هـ / 1250 - 1517م)

اعداد

سارة حسني سعيد

باحثة ماجستير

كلية دار العلوم - جامعة الفيوم

المستخلص

يتناول البحث أثر المشارقة في ازدهار المكتبات في بلاد الحجاز خلال العصر المملوكي (648-923هـ/1250-1517م)، وقد تحدَّثتُ فيه عن عدد من المكتبات التي أسسها المشارقة في بلاد الحجاز، وهذه المكتبات هي: مكتبة سلطان بَنْجَالَة غياث الدين أبو المظفر أعظم شاه، ومكتبتي سلطان فارس شاه شجاع (ت 787هـ/1385م)، ومكتبة رباط الخُوزِي، ومكتبة مجد الدين محمد بن يعقوب الفَيْرُوزآبَادِيّ (817هـ/1415م)، كما تناولتُ دورهم في ازدهار واتساع مكتبات أخرى أبرزها مكتبتي الحرمين الشريفين التي أثراها سلطان دولة كَجَرَات بالهند السلطان مظفر شاه (916-932هـ/1510-1526م) بمصاحف وربعات وكتب جليلة، ومكتبات أخرى منها مكتبة رباط ربيع التي أثراها الشيخ علي الكيلاني (ت916هـ/1510م) بالكتب النفيسة، وغير ذلك من وسائل إثراء المكتبات في الحجاز خلال تلك الفترة.

Abstract

The search deals with the impact of Mashareqa in the flourishing of libraries in the Hijaz during the Mamluk period (648-923 AH/1250-1517AD). It spoke about a of number of libraries founded in Hijaz by Mashareqa. These libraries are: Sultan of Fares of Sultan Benjalh Ghayasuddin Abu Muzaffar Library, And Two libraries ribat Al-Khuzi, And the Shah Shuja (D 787 AH / 1385 AD), And the library of library of Majd Al-Din Muhammad Ibn Yaqoub Al-Fayrouzabadi (D 817 AH / 1415 AD), And their role in the flourishing and expansion of other libraries, most notably the libraries of the two holy mosques, which was raised by the Sultan of the State of Gujarat in India Sultan Muzaffar Shah (916-932 AH / 1510-1526 AD) with Mus'hafes and rabeat and Great books, And other libraries, including: Library of Ribat Rabia, which Sheikh Ali Al-Kilani (D 916 AH / 1510 AD) enriched by precious books, And other means of enriching libraries in the Hijaz during that period

.

أدرك المسلمون أهمية المكتبات ودورها في نشر العلم، فعُنوا بالكُتَّاب والمكتبات عناية فائقة فتعددت وتنوعت، فكان منها المكتبات العامة التي أُلحق بعضها بالمؤسسات العلمية وبخاصة المدارس، ومنها المكتبات الخاصة، لذلك نجد ما من مدرسة بالحجاز إلا وكان بها مكتبة خاصة بالكتب الثمينة[1]، وقف عليها الملوك والأمراء والعلماء الكتب الكثيرة في مختلف ألوان المعرفة والمصاحف والربعات الشريفة، ومن هؤلاء الملوك: سلطان دولة كَجَرَات بالهند، السلطان مظفر شاه[2] (916-932هـ/1510-1526م)، الذي أرسل إلى الحرمين مصحفين كتبهما بخط الثلث المحرر بماء الذهب -وكان حسن الخط وكتب بيده جملة من المصاحف الشريفة-، وخصَّ إمام الحنيفة بالقراءة فيهما، كما أرسل كذلك بخطه ربعتين، وأرسل معهما كتبًا جليلة[3]، وجعل للمصحفين والربعتين وقف مخصوص

---

(1) ابن دقماق (إبراهيم محمد المصري ت 809هـ/1406م): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بولاق- مصر، 1311هـ/1893م ص97.

(2) السلطان مظفّر شاه فهو أحمد بن محمود شاه صاحب كجرات (ت 932هـ/1525م)، كان عادلًا، فاضلًا، محبًا لأهل العلم، حسن الخطّ، وكتب بيده جملة مصاحف، أرسل منها مصحفًا إلى المدينة الشريفة، وخرجت روحه وهو ساجد، وفد عليه العلّامة جمال الدين محمد بن عمر بن مبارك بن عبد الله الحميري الحضرمي، الشهير بـ"بحرق" وصنّف بسببه "السيرة النبوية"، ولم يزل عنده مبجّلًا، مكرّمًا إلى أن مات. [العمري (شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي ت 749هـ/1348م): مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي/ أبو ظبي، الطبعة الأولى، 1423هـ/2002م ج 3 ص45، ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي ت 1089هـ/1678م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م ج10 ص255، العَيْدَرُوس (محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله ت 1038هـ/1628م): النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية - بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ/1984م ص174]

(3) ابن العماد: شذرات الذهب ج10 ص25، العَيْدَرُوس: النور السافر ص174.

يتجهز كل عام إلى الحرمين الشريفين لقارئ المصحف وقُرَّاء الأجزاء وشيخ الربعة، ومُفرِّقها، والحافظ لها، والدَّاعي له عند الختم، والسَّقَّاء في وقت القراءة، والنقيب، والفَرَّاش، واستمر ذلك زمنًا[1].

وقد حظيت مكة والمدينة –نظرًا لمكانتيهما الدينية والعلمية– بالنصيب الأوفر من المكتبات وخزائن الكتب التي أسهم المشارقة في تأسيسها في الحجاز، وتزويدها بنفائس الكتب، ومن أبرز هذه المكتبات والخزائن:

1. مكتبة سلطان بَنْجَالَة[2] غياث الدين أبو المظفر أعظم شاه[3]:

---

[1] الطالبي (عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني ت 1341هـ/1922م): الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999م ج4 ص432.

[2] بلاد بَنْجَالَة (البنجال أو البنغال) – وتنطق جيمها جيمًا قاهرية– وصفها ابن بطوطة بقوله: "هي بلاد متسعة كثيرة الأرز، ولم أر في الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة، وأهل خرسان يسمونها دوزخست بور نعمت، ومعناه: جهنم ملأى بالنعم، وتنقسم بلاد البنغال إلى قسمين: البنغال الغربية وتتبع الهند وعصمتها كليكوتا، والبنغال الشرقية وتتبع بنجلادش، وعاصمتها داكا. [ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي ت779هـ/1377م): رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، بدون تاريخ ج2 ص473].

[3] غياث الدين أبو المظفر أعظم شاه بن إسكندر شاه بن شمس الدين السجستاني الأصل، صاحب بَنْجَالَة من بلاد الهند (ت 814هـ/1412م)، كان حنفيًا ذا حظ من العلم والخير محبًا في الفقهاء والصالحين شجاعًا كريمًا جوادًا، ابتنى بمكة مدرسة، وكذا عمل بالمدينة النبوية مدرسة. [السخاوي (شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد، ت 902هـ/1497م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت/ لبنان، بدون تاريخ ج2 ص313].

وهي إحدى خزائن الكتب المنتشرة في بعض مدارس مكة، وخصّص لها واقفها حُجْرة في أعلى مدرسته من إحدى عشر خُلوةً كانت محلًا لسكنى جماعة من فقراء طلبة المدرسة[1].

2. مكتبة السلطان شاه شجاع (ت 787هـ/1385م)[2] بمكة:

أسسها في عام 771هـ/1369م، وجعل مكانها في رباطه الذي بمكة تجاه باب الصفا[3]، ووقف عليها كتبًا كثيرة انتفع بها العلماء والطلاب من أهل مكة والوافدين عليها[4].

3. مكتبة السلطان شاه شجاع بالمدينة:

---

[1] الفاسي (تقي الدين أبو الطّيب محمد بن أحمد شهاب الدين المكيّ الإدريسي الحسني ت 832هـ/1428م): شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م ج1 ص540، 541.

[2] السلطان جلال الدين أبو الفوارس شاه شجاع بن محمد بن المُظفّر اليَزْدي –سلطان بلاد فارس– (760هـ/1358م–786هـ/1384م أو 787هـ/1385م) كان قد ملك في حياة أبيه شيراز وكرمان، ثم اجتمع هو وأخوه محمود صاحب أصبهان على خلع أبيهما، ثم ملك شاه شجاع أصبهان، وأقطعها لابنه زين العابدين، وتوفي سنة 787هـ/1385م بعد أن ملك بلاد فارس، وله من المآثر بمكة رباط، وأوقاف عليه بمكة، وخزانة كتب موقوفة بالحرم النبوي، وكتب موقوفة برباطه. [الفاسي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي – فؤاد سيد – محمود الطناحي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1406هـ/1986م ج4 ص256، السخاوي: التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ/1993م ج1 ص209، 210].

[3] باب الصفا: سمي بذلك لأنه يلي جبل الصفا، وهو واحد من سبعة أبواب تقع في الجانب الجنوبي من المسجد الحرام، ويسمى أيضًا باب بني مخزوم. [الفاسي: شفاء الغرام ج1 ص313].

[4] الفاسي: العقد الثمين ج5 ص3، 4.

وهي عبارة عن خزانة كتب وقفها بالحرم النبوي[1]، "اشتملت على محاسن الكتب ومفاخرها، فما من طالب مقتبس إلا وهو يستمد من جواهر زواخرها"[2].

4. مكتبة رباط الخُوزِي[3] بمكة:

هي مكتبة أنشأها محمود بن جمال الدين أبو طاهر الهَرَوِيّ الناسخ (ت 796هـ/1393م)[4]، ووقف عليها كُتبًا في الحديث والفقه[5]، كما أسهم غيره كذلك في ازدهار هذه المكتبة وزيادة عدد الكتب بها، من أمثال الشيخ أحمد بن سليمان

---

[1] الفاسي: العقد الثمين ج5 ص3، 4.

[2] السخاوي: التحفة اللطيفة ج1 ص209، 210.

[3] أنشأه الأمير قَرَامرز بن محمود بن قرامر الأفزري الفَارِسِيّ في سنة 617هـ/1220م، ووقفه على الصوفية الغرباء بمكة، والخوزي هي نسبة إلى موضعين، أحدهما إلى خوزستان، وهي كور الأهواز في إيران، بين فارس والبصرة، والثاني إلى شِعب الخوز بمكة المكرمة. [السمعاني (أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي ت 562هـ/1166م): الأنساب، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، 1382هـ/1962م ج5 ص229، الفاسي: شفاء الغرام ج1 ص544، 548، العقد الثمين ج1 ص119، النجم ابن فهد (النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكيّ ت 885هـ/1480م): إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1426هـ/2005م ج3 ص31]

[4] محمود بن جمال الدين أبي طاهر الهروي الناسخ، جاور بمكة مدة، وسمع بها الكثير، على الشيخ جمال الدين الأميوطي، والعفيف عبد الله بن محمد النشاوري، وغيرهما بالسماع والإجازة، وكتب بخطه الكثير، واشتهر بالخير، وكان رجلا صالحا، توفي في أوائل سنة 796هـ/1393م بمكة، ودفن بالمعلاة، وكان يسكن في رباط غزي بأجياد، من مكة. [الفاسي: العقد الثمين ج7 ص137]

[5] الفاسي: العقد الثمين ج7 ص137.

بن أحمد شهاب الدين التروجي المصري المالكي الذي وقف عليها كتبًا قبل عام 812هـ/1409م[1].

5. مكتبة مجد الدين الفَيْرُوزآبَادِيّ[2]:

وهي أشبه بمكتبة خاصة متنقلة، إذ إن صاحبها قضى حياته في التنقل بين عدد من المدن، منها مكة والمدينة والطائف -حيث توفي سنة 817هـ/1415م-، فكان لا يسافر إلّا وفي صحبته منها أحمال، يخرجها في كل منزل وينظر فيها، وقد حَوَتْ هذه المكتبة من الكتب شيئًا كثيرًا حتى نُقل عنه أنه قال فيها: "اشتريت بخمسين ألف مثقال كتبًا"، وقد أذهب معظم هذه الكتب بالبيع، وما وُجد له بعد

[1] أحمد بن سليمان بن أحمد شهاب الدين، المعروف بالتَّروجي المصري المالكي، سكن الإسكندرية مدة، ثم جال في البلاد، ودخل العراق، والهند، وعظم أمره ببَنْجَالَة، من بلاد الهند، وحصل له فيها دنيا، ذهبت منه، وانتقل إلى الحجاز، وأقام بالحرمين مدة سنين، وتوفي بمكة في سنة 812هـ/1410م عن نحو ستين سنة، وكانت لديه نباهة في العلم، ويذاكر بأشياء حسنة من الحكايات والشعر، وينطوي على خير. [الفاسي: العقد الثمين ج3 ص43، 44، السخاوي: الضوء اللامع ج1 ص307، 308]

[2] الفِيرُوزَابادي: محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم بن عمر، أبو طاهر، مجد الدين الشيرازي الفيروزآبادي (729-817هـ/1329-1415م)، من أئمة اللغة والأدب، ولد بكارزين (بكسر الراء وتفتح) من أعمال شيراز، وانتقل إلى العراق، وجال في مصر والشام، ودخل بلاد الروم والهند، ورحل إلى زُبَيْد سنة 796هـ/1393م فأكرمه ملكها الأشرف إسماعيل وقرأ عليه، فسكنها وولي قضاءها، وانتشر اسمه في الآفاق، حتى كان مرجع عصره في اللغة والحديث والتفسير، وتوفي في زبيد، وأشهر كتبه (القاموس المحيط - ط) أربعة أجزاء، و(المغانم المطابة في معالم طابة - ط) القسم الجغرافي منه، حققه ونشره حمد الجاسر، وبقية الكتاب مخطوطة عنده. [الفاسي: ذيل التقييد ج1 ص276، الزركلي (خير الدين بن محمود بن محمد الدمشقي ت 1396هـ/1976م): الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر 1423هـ/2002م ج7 ص147]

موته منها ما كان يُظنُّ به لأنه كان كثير التبذير، وإذا أملق باع منها، وإذا أيسر اشترى غيرها[1].

وإضافة إلى المكتبات السابقة التي قام المشارقة بإنشائها بشكل مباشر، فقد كانت هناك مكتبات أخرى كان لهم فيها إسهامات كبيرة، منها مكتبة رباط ربيع التي أثراها الشيخ علي الكيلاني (ت916هـ/1510م) بالكتب النفيسة[2]

الخاتمة

توصل البحث إلى مجموعة من النتائج كان من أبرزها:

1. لقد حظيت المكتبات في بلاد الحجاز خلال العصر المملوكي باهتمام كبير من قبل المسلمين عمومًا، فلم تَخْلُ مدرسة أو رباط من مكتبة تخدم طلابها، إضافة إلى المكتبات الموجودة في الحرمين الشريفين.
2. كان إسهام المشارقة في ازدهار تلك المكتبات واضح، إما من خلال تأسيسها أو مدِّها بالكتب، ولحكام المشارقة أكبر الفضل في ذلك، ويبدو هذا جليًا عند القيام بأي استقصاء سريع، فللحكام المشارقة مكتبات منها: مكتبة سلطان بَنْجَالَة غياث الدين أبو المظفر أعظم شاه، ومكتبتي السلطان شاه شجاع (ت 787هـ/1385م) بمكة والمدينة، ولغير الحكام مكتبات أيضًا منها: مكتبة رباط الخُوزِي بمكة، ومكتبة مجد الدين الفَيْرُوزآبَادِيّ.
3. لم يقتصر أثر المشارقة في ازدار المكتبات على تأسيسها فقط بل كانت لهم إسهامات كبيرة في ازدهار ونشاط مكتبات أخرى، وأبرز مثال على ذلك: مكتبة رباط ربيع التي أثراها الشيخ علي الكيلاني (ت916هـ/1510م)

---

[1] الفاسي: العقد الثمين ج2 ص 431، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج9 ص187.

[2] العز بن فهد (عبد العزيز بن النجم ابن فهد المكيّ ت 922هـ/1516م): بلوغ القِرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق صلاح الدين بن خليل إبراهيم، وعبد الرحمن بن حسين أبو الخيور، وعليان بن عبد العال المحلبدي، دار القاهرة، الطبعة الأولى، 1425هـ/2005م ج3 ص 1718.

بالكتب النفيسة، والكتب والمصاحف والربعات التي أرسلها سلطان دولة كَجَرَات بالهند، السلطان مظفر شاه (916-932هـ/1510-1526م)، الذي أرسل إلى الحرمين.

4. أوقف المشارقة على المكتبات وغيرها من المؤسسات العلمية أوقافًا جليلة، كان لها أثر كبير في قيامها بدورها واستمرارها في أداء خدماتها أطول فترة ممكنة.

المصادر والمراجع

أولًا: المصادر:

ابن بطوطة: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي (ت779هـ/1377م)

1. رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الشرق العربي، بدون تاريخ.

ابن دقماق: إبراهيم محمد المصري (ت 809هـ/1406م)

2. الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بولاق – مصر، 1311هـ/1893م.

السخاوي: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد (ت902هـ/1497م)

3. التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1414هـ/1993م.

4. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الجيل، بيروت – لبنان، بدون تاريخ.

السمعاني: أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي (ت 562هـ/ 1166م)

5. الأنساب، تحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة الأولى، 1382هـ/1962م.

ابن العماد: عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (ت 1089هـ/1678م)

6. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، 1406هـ/1986م.

العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله القرشي العدوي (ت 749هـ/1348م)

7. مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي/ أبو ظبي، الطبعة الأولى، 1423هـ/ 2002م.

العَيْدَرُوس: محيي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت 1038هـ/1628م)

8. النور السافر عن أخبار القرن العاشر، دار الكتب العلمية – بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، 1405هـ/1984م.

الفاسي: تقي الدين أبو الطّيب محمد بن أحمد شهاب الدين المكيّ الإدريسي الحسني (ت 832هـ/ 1428م)

9. ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، الطبعة الأولى، 1410هـ/1990م.

10. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، 1421هـ/2000م.

11. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي – فؤاد سيد – محمود الطناحي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية، 1406هـ/1986م.

ابن فهد: النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد الهاشمي المكيّ (ت 885هـ/ 1480م)

12. إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثالثة 1426هـ/2005م.

ابن فهد: العز عبد العزيز بن النجم بن فهد المكيّ (922هـ/1516م)

13. بلوغ القِرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق صلاح الدين بن خليل إبراهيم، عبد الرحمن بن حسين أبو الخيور، وعليان بن عبد العال المحلبدي، دار القاهرة، الطبعة الأولى، 1425هـ/2005م.

ثانيًا: المراجع:

الزركلي: خير الدين بن محمود بن محمد، الدمشقي (ت 1396هـ/1976م)

14. الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر 1423هـ/2002م.

الطالبي: عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني (ت 1341هـ/1922م)

الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 1420هـ/1999